تصريحات البابا: تأملات وتذكير ببعض المنسيات

محمد شاويش*

■ حيث أن مشكلة تصريحات البابا الأخيرة تتكرر بصورة دورية في زماننا هذا، فهي تعيد بشكل مختلف مشكلة الرسوم الكاريكاتورية وان لم تختلف لا المقولة الأساسية (ربط الاسلام بالعنف) ولا ردود جماهير المسلمين عليها، فقد وجدت من الواجب بعد بعض التأمل في مغزى التصريحات التذكير بحقائق بسيطة ولكنها تنسى بشكل غريب عندنا:

.1.

ما قاله البابا «عادي» من منظور التاريخ الطويل للجدل بين الأديان، وخصوصاً بين الاسلام والمسيحية، وكلام البابا هو بحق هراء من الناحية العلمية لا قيمة له، ولكنه «عادي» كما قلت، فهو تكرار لهذه الجدالات العقيمة التي يسمونها في أوروبا Polemik والذين لن يعجبهم كلام البابا هم في الحقيقة علماء اللاهوت الغربيون الجدد الذين توقفوا منذ مدة عن الايمان بوجود دين صحيح يستطيع أن يقول عن غيره من الأديان انه باطل، وهؤلاء نقابلهم، نحن المقيمين في الغرب، دوماً، ويبدو أنه ليس عبثاً أن ينسب هذا البابا الجديد منذ انتخب الى التيار «المحافظ» في الكنيسة، فكلامه يتناقض مع التوجهات الحديثة في اللاهوت المسيحي بشتى فرقه (باستثناء الفرقة الأصولية الانجيلية التي لها وجود قوي في الولايات المتحدة كما هو معروف)، هذه التوجهات الحديثة التي تحاول أن تلائم المسيحية مع حالة مجتمعية غربية (بالذات في أوروبا الغربية) أهم ميزاتها الابتعاد عن الدين.

قلت: ان من لن يعجبهم المنطلق «الابستمولوجي» لتصريحات البابا ان جاز التعبير هم علماء اللاهوت المسيحيون الجدد هؤلاء، ولكن من الغريب حقاً أن لا تعجب تصريحات البابا قدراً كبيراً من العلماء المسلمين والجماهير الشعبية الاسلامية، وعدد من الأحزاب الاسلامانية (سواء منها العنيفة المعروفة أم السلمية كحزب التحرير)، الذين تصدوا بكل شدة لآراء التيار الاصلاحي الاسلامي الذي حرص منذ عهد محمد عبده حتى القرضاوي وزملائه في الأحزاب واسعة الأفق، كحزب النهضة التونسي وحزب العدالة والتنمية المغربي على تأكيد الفكرة المعاكسة لزعم البابا القائل ان الاسلام انتشر بالعنف، فقد أكد الاصلاحيون على أن الاسلام كان دين الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن أسلمة الناس بالقوة تتعارض مع روح الاسلام ونصه الذي يؤكد على عدم الاكراه في الدين، ويؤكد أيضاً على بقاء ظاهرة الاختلاف بين البشر وأنه من سنن الله فهو لم يرد أن يجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم! (انظر سورة هود، 118ـ119) الذين تصدوا للاصلاحيين قالوا في التهجم عليهم واتهامهم بكل التهم التي تصل الى حد الاخراج من الاسلام أكثر مما قال مالك في الخمر مؤكدين على «ضلالهم» و«تحريفهم» وأن «جهاد الطلب» ركن من الاسلام وفرض!. فان كان البابا قال شيئاً يعتقدون أنه صحيح فلم الانزعاج؟

.2.

تصريحات البابا قد تدل (كما كان رأي نيويورك تايمز الأمريكية وبعض الصحف الألمانية) على أنه شخص لا يفهم بالدبلوماسية ولا يقدر مكان تصريحاته كرأس للكنيسة وليس كمحاضر في جامعة! ولكني أدعو العرب بالذات والمسلمين عموماً لمحاولة فهم البعد العالمي المحتمل لتصريحاته التي تخطر بالبال، فتصريحات هذا البابا تجيء بعد العدوان الكبير على لبنان الذي باء بالفشل، وتغير الموقف الأوروبي الذي كان متمايزاً نسبياً عن الولايات المتحدة في اتجاه مزيد من التقارب مع الموقف الأمريكي، وأرجو أن لا يكون البابا الجديد قرر أن يناصر الحملة البوشية على الاسلام على طريقته، كما ناصر البابا السابق بنجاح الحملة الريغانية على الشيوعية، وتمكن بالتعاون الموضوعي مع «كبار علماء» الوهابية الرسمية في السعودية من اسقاط الشيوعية، حين تولى البابا شأن اسقاط الشيوعية في بولندا، وتولى علماء السعودية تجييش الجيوش والأموال لاسقاط الشيوعية عبر دحر الجيش السوفييتي في أفغانستان.

ومن الأمور التي تخطر على البال أيضاً التغير الكبير في قلعة الكاثوليكية في العالم وهي أمريكا اللاتينية، وهو تغير في اتجاه اليسار يجعل القوى الشعبية الصاعدة على أبواب الولايات المتحدة (وصل المد اليساري الجديد الى المكسيك)، ومن المميز أن هؤلاء اللاتينيين اتخذوا مواقف جذرية في القضايا العربية يقارنها المواطنون العرب بكل حسرة مع مواقف حكامهم.

ان كان الأمر كذلك، فمن الواجب علينا أن نعود لطرح تصورنا عن الصراع في العالم على حقيقته، وهو التصور القديم الذي كان سائداً قبل المد الاسلاماني ضيق الأفق، وقرينه الذي جاء بعده وهو المد الأصولي المسيحي ـ الصهيوني في الولايات المتحدة، الذي عزز من تصور الصراع في العالم على أنه صراع ديني بين الاسلام والمسيحية (وبهذا يتوجب أن يقف «المسيحي» رئيس فنزويلا شافيز و«المسيحي» رئيس بوليفيا موراليس في نظر هذا التصور في صف واحد مع الرئيس «المسيحي» للولايات المتحدة بوش!) يجب على الجماهير الشعبية أن تفهم أنها تخوض صراعاً مع قوى مستغلة جبارة لا ضمير لها، وأنها في صراعها ضد هذه القوى لها في العالم حلفاء يتمثلون في مئات الألوف من الشباب والناشطين ذوي الضمائر في الغرب، ومن شعوب مضطهدة مستغلة تشكل أغلبية القارات الخمس، وأن هذا الصراع ليس «صراعاً للمسلمين مع اليهود والنصارى». هذه الصيغة الغبية المسيئة نتهاون في النضال ضدها مع أنها أولاً تتناقض مع روح التسامح العميقة في الاسلام وروح العدل الفريدة فيه التي تطلب من المسلم أن لا يدفعه العداء الى عدم التفريق بين المختلفين عنا في الدين، فنماثل بين محسنهم ومسيئهم، وبين من حاربنا ومن وقف معنا! وثانياً هي تضعف من موقفنا الأخلاقي في العالم، وتسيء الى قضايانا العادلة. وكما قال الفقير لله في مقال سابق: ليس العجب من الجلاد الذي يحاول أن يقدم نفسه على أنه ضحية، بل العجب كل العجب من الضحية التي تصر وتجتهد بكل قواها للتأكيد أنها جلاد!

.3.

من المبادئ الثابتة في ديننا الاسلامي مبدأ يتعلق بكيفية الجدال مع المخالفين في الدين، وهو مبدأ مقرر في القرآن الكريم. قال عز وجل «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم» (العنكبوت ـ 46)، وهذا المبدأ لم يبق نظرياً بل تم تطبيقه في التاريخ الاسلامي، ومن المؤسف أن البابا لم يخطر على باله مقارنة حالة الجدال بين المسيحيين والمسلمين في معظم حقبات التاريخ الاسلامي بحالة «الجدال» بين الكنيسة الكاثوليكية ومخالفيها في معظم حقبات التاريخ الكاثوليكي من محاكم التفتيش الى «حروب الاسترداد» في اسبانيا التي تلتها مباشرة ابادة الهنود الحمر على أيدي كاثوليك أولاً. لكن هذا المبدأ الاسلامي الثابت أحب أن أذكر به المسلمين أيضاً، فأين هو «الجدال بالتي هي أحسن» ان كنا ننفعل ونغضب ونلجأ لتدمير السفارات والمراكز المدنية الأجنبية عند كل هجوم كلامي على الاسلام؟

ومن الطريف أن هذه الأفعال لا تؤكد خطأ قول البابا بل تؤكد صحته! وأعني أنها تؤكد صحته للناظر السطحي طبعاً، لأن الاسلام لا يمثله هؤلاء المندفعون على غير تبصر، ولا من يستغلهم لتحقيق أغراض محلية من حكومات فاسدة تريد نيل شعبية غير مستحقة على أكتاف هذه الجموع المقهورة حتى النخاع من قوى الاستبداد العالمية والاقليمية.

.4.

ما يزعج في ردود فعل المسلمين أنها لا تنتبه للشيء الحقيقي الوحيد الذي يجعل العالم يحترمهم ولا يبخسهم حقوقهم، ألا وهو خروجهم من حالة الانحطاط الحضاري الذي يجعلهم محتقرين في نظر الآخرين، وكل التركيز يكون على الغضب وطلب الاعتذار من المسيئين. ماذا فعل الذين يبدؤون عادة بهذه الحملات وهم أهل الخليج لمنع هدر الثروات البترولية للمسلمين في صفقات الأسلحة التي لا تستعمل، والتي هدفها الوحيد دعم الاقتصاد الأمريكي، وفي سفاهات الأمراء وبعض الرعية أيضاً؟ أين استعمال هذه الأموال لاخراج بلدان شقيقة من أزماتها الاقتصادية الطاحنة مثل مصر وسورية والمغرب وباكستان وأندونيسيا وغيرها؟ أين السعي لتغيير السلوك المنحط بسلوك حضاري يقلب حال المجتمع ويجعله يبدأ فعلاً بالتوقف عن الانحدار وفي البدء في المسيرة الحضارية التي تجعلنا من جديد قدوة للعالم بعد أن أصبحنا القمامة التي تعافها أنظار الآخر؟ وهذا السؤال الأخير يوجه طبعاً للمسلمين جميعاً وليس للخليجيين وحدهم.

.5.

حين نؤكد على الطابع الكلي للتسامح والعقلانية للاسلام لا نفعل ذلك، كما يظن الجهلة ومحدودو التفكير عندنا، لارضاء الآخرين، بل نفعله لارضاء ضمائرنا ولأننا نؤمن أن البديل الانساني الشامل الرافض لكل ظلم وقهر للاسلام دور كبير في بنائه وتدعيم أركانه.

* كاتب من فلسطين يقيم في برلين

قرابين سورية لمحراب السفارة الامريكية

محمود الخلف*

■ مما لا شك فيه ان اعداء امريكا كثر بين شعوب العالم وخاصة في الشعوب العربية والاسلامية، ومرد ذلك الى السياسة الامريكية العدائية التي انتهجتها سابقا وتنتهجها لاحقا الادارة الامريكية.

كعربي ومسلم يعيش في الغرب لفترة زمنية طويلة قابلت العديد من الغربيين الذين يكنون العداء للسياسة الامريكية العالمية وبشكل خاص سياستها تجاه العالم الاسلامي والعربي، فمن الطبيعي ان يتواجد الالوف بل الملايين من شعوب العالم الاسلامي والعربي الذين يتحينون الفرصة المناسبة للنيل من اي جهة رسمية امريكية، والشعب السوري كغيره من الشعوب العربية والاسلامية فيه الالوف ممن يأملون ان تتاح لهم الفرصة للنيل من امريكا، لكن؟ لكن هذه سورية القائم نظامها على عشرات الاجهزة الامنية منذ ولادة هذا النظام الى هذا الوقت.

من حقنا ان نتساءل كسوريين وعرب هل الشعب السوري اقل وطنية وشجاعة من الاخوة اللبنانيين حتى يبادر الاخوة اللبنانيون المرة تلو المرة لمحاربة الاسرائيلي من الجنوب اللبناني وبشكل نهائي مع قلة العدة والعدد مقارنة مع الشعب السوري وقواته الباسلة التي نصيبها من ميزانية الدولة السورية نصيب الاسد.

من حقنا ان نتساءل لم لم تحدث اي محاولة استشهادية، انتحارية ، اطلاق رصاص ولو من بعد في الجولان السوري المحتل منذ 1973 حتى الآن؟

هل الاراضي السورية الشاسعة المحاذية للجولان المحتل محصنة تحصينا امنيا سوريا اكثر من منطقة القصر الجمهوري ومركز الثقل الامني والتي هي في العاصمة السورية والتي بجوارها السفارة الامريكية وغيرها من السفارات؟ ان للاجهزة الامنية السورية المتعددة خبرة في اختراق المنظمات الاسلامية وغير الاسلامية ولها باع طويل في ذلك والا كيف استطاع نظام الحكم في سورية ان يضمن استمراريته في السلطة لنحو يزيد عن الاربعين عاما؟ ان المراقب لوضع سورية على الصعيد الدولي والاقليمي يلاحظ ان النظام في سورية في وضع لا يحسد عليه فهو في عزلة دولية وذلك باصطفاف هذا النظام الى جانب ايران وما قامت به اجهزته الامنية في لبنان مسبقا.

ان ما هو آت بالنسبة لايران امر ضبابي ، لم تتضح الرؤية بشأنه بعد، هناك تخوف من فرض عقوبات على ايران ولربما حدوث عمل عسكري ضدها مستقبلا، لعل راس النظام السوري استيقظ متاخرا، وذلك بعد حلم بطولي شجاع نال منه ما نال من رؤساء وملوك لدول عربية بالامس القريب كان يعتبرها الحليف الاستراتيجي له وتربطه بها معاهدات دفاع مشترك.

لعله استيقظ الان ويحاول تصليح ما افسد بالقريب العاجل وهو ارضاء السيد الامريكي. وخير بوابة يلج بها على السيد الامريكي هي البوابة الامنية والظهور بمظهر الرديف في محاربة الارهاب لكن ما كان املنا ان يستدرج ابناؤنا السوريون وتسهل لهم السبل ويغرر بهم ومن ثم يقدمون قرابين لمحراب السفارة الامريكية حتى ينال الرضى الامريكي بدماء سورية.

* كاتب من سورية يقيم في المهجر

لماذا لا يحاكم زعماء الاكراد في قضية «الانفال»؟

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

■ بعد انتهاء قضية الدجيل التي حوكم بموجبها الرئيس العراقي المطاح به من قبل امريكا وبمحكمة تبدو عراقية لكنها امريكية مئة بالمئة وان كل من فيها ـ عدا هيئة الدفاع ـ يتحركون من قبل ضباط امريكيين يتحكمون حتى في ما يثبت من اقوال وما يحذف.

جاء دور قضية الانفال، ولنلاحظ في البداية ان القضية الاولى كانت هيئة المحكمة الظاهرة للعيان برئاسة قاض كردي استبدل بقاض كردي آخر. وكل هيئة الادعاء من طائفة واحدة ـ وهذا امر متعمد ومقصود ـ لان القضية جرى منحها هوية طائفية هي هوية هيئة الادعاء نفسها.

اما في قضية الانفال وساحتها المنطقة الشمالية من العراق وتخص الاكراد فقد وضع على رأس المحكمة قاض اختير ـ من اجل التجانس ـ من طائفة هيئة الادعاء.

ويبدو ان هذا القاضي لن يعمر طويلا اذ ان اسلوبه لم يعجب هيئة الادعاء كما هو الحال مع القاضي الكردي الاول في القضية السابقة.

ويبدو ايضا ان القاضي العامري يعرف جيدا انه يؤدي دور القاضي في هذه المسرحية المسماة محاكمة الرئيس صدام علّ هذه المسرحية تحظى بعدد اكبر من المتفرجين لإلهائهم عما يدور في البلد حيث الجرائم الاكثر بشاعة في تاريخ البلد والهيجان الطائفي الاعمى يصل الى ذرى لم يعرفها، وحيث مشاريع التقسيم المتفق عليها بين الزعيمين الكرديين وجماعة الحكيم الايرانية الهوى والانتماء ومن تبعه من تنظيمات واحزاب ذات هوية طائفية واحدة مثل منظمة بدر ذات التاريخ السيئ في تعذيب الأسرى العراقيين لدى ايران في سنوات الحرب لانتزاع الاعترافات منهم والتمثيل بمن لا يعترف، وهي المنظمة نفسها التي اعدت قوائم بأسماء الضباط العراقيين والطيارين منهم بشكل خاص الذين أبلوا البلاء الكبير في القتال وقامت بتصفية عدد كبير منهم بعد احتلال العراق وتحولهم الى ادوات الدعم والتأييد له.

ان العراقيين الذين يمتلكون قدرا من المعرفة بتاريخ العراق القريب وكانوا اقرب الى دور الشهود على ما جرى فيه يرون ان هذه المحكمة ناقصة واذا كان لا بد منها للوصول الى الحقيقة فيجب ان يستدعى لحضورها زعيما الحزبين الكرديين الرئيسيين لكونهما مسؤولين عن اختطاف الشعب العراقي الكردي واخضاعه لما يريدانه وما يعملان من اجله.

اما لماذا وجب حضورهما كمتهمين لا كشاهدين كما ذكر الطالباني اخيرا عن استعداده للشهادة وان كان السامع يشك في هذا، فكيف يمكنه الوقوف في حضرة الرئيس صدام ليشهد عليه؟ بأي لسان؟ وبأي عين يراه؟ هذا تصريح للاستهلاك الاعلامي فقط هكذا فهمناه وكذا ما قاله وفي نفس المعنى خال مسعود البارزاني والقيادي في حزبه هوشيار زيباري.

والجواب هو لانهما مسؤولان عن وضع اغلبية الشعب العراقي الكردي تحت النار وجعل المدن والقرى الحدودية العراقية في شمال العراق ساحة المعركة عندما انحازا لايران بدلا من انحيازهما لوطنهما، او وقوفهما على الحياد على الاقل، ولكنهما خاضا كل بالبيشمركة الخاصة به الحرب في جبهة ايران ضد العراق وكأنها حربهما ومعهما وليست مع عدو خارجي.

ان من امتلكوا نبل الانتماء الوطني وبعد ان (وقع الفأس بالرأس) كما يقول المثل لم يتوانوا عن الوقوف بجانب الوطن ما دامت الحرب قد قامت ومراجعة اسبابها صارت امرا مؤجلا حتى الانتهاء منها، وبعد ذلك يأتي الحساب، حساب العراقيين مع حكومتهما! هذا هو المنطق الصحيح، وهذا هو الموقف. لان الوطن اولى وعلى اي واحد يدعي الانتماء الاصيل له ان لا يستغل محنته ليكون في جانب الذين ينوون ذبحه، ولذا لم نستغرب عندما يصطف هذان الزعيمان مع قوات الغزو الامريكية وكأنهما يعيدان سيرتهما الاولى في اصطفافهما مع شاه ايران ضد العراق ومن ثم مع الخميني ضد العراق وصولا الى حصار العراق والمنطقة الشمالية (الآمنة) التي انجزها لهما الامريكان ومن معهم.

لقد تسنى لي شخصيا ان اتجول مع عدد من الادباء والصحافيين العراقيين في شمال العراق الغالي بعيد توقف الحرب واقرار الجانب الايراني بهزيمته فيها ومررنا بمدينة «حلبجة» فوجدناها مدينة حدودية وان حمايتها وحماية المدن الحدودية الاخرى التي كانت مسرحا لما سمي عملية الانفال كانت تتطلب من هذين الزعيمين الكرديين ان يبعدا اذاها عن هذه المدن، ولكنهما لم يقوما بهذا بل جعلا هذه المدن وقودا للحرب وراح ضحيتها المئات من المواطنين الآمنين الذين كان من الممكن تجنيبهم كل هذا الاذى وجعل المحارق تدور في اماكن اخرى بعيدة عنهم.

ان ما جرى للعراق الذي تجاوز كونه مأساة عراقية الى البلدان العربية بل والانسانية كلها يتطلب معرفة كل الحقائق اذ لا اسلحة كيمياوية ولا بيولوجية ولا علاقات مع القاعدة او اي منظمات اخرى، فدعوا العالم يعرف حقيقة ما جرى في الانفال وحلبجة ومن المسؤول؟ هل هو النظام العراقي الذي تحاكم قيادته؟ ام الجانب الكردي؟

لا نريد ان نستبق رغم اننا نعرف، ولكن لنسمع ما يقوله الطالباني والبارزاني عما جرى رغم ان البارزاني اعلن انه يكره بغداد!

واذا بقي الحال في المحكمة على ما هو عليه محاصرة المحامين العرب عن الرئيس الاسير حتى لا يقدموا مرافعاتهم وكلهم من الكبار في مهنتهم فان المسألة تبدو شبيهة بالوقوف على قدم واحدة.

لقد قرأنا اخيرا ان اربع سيدات عراقيات رفعن دعوى قضائية ضد بيشمركة الطالباني والبارزاني لقتلها اولادهما، ولعل اخريات وآخرين يشجعهم هذا العمل وخاصة من ابناء الشعب الكردي العراقي الضحية الاولى لاصطفاف زعمائه مع الاعداء حيث اختطفوا ارادة هذا الشعب وحولوه الى متمرد يتنكر لأرضه واهله وأداة لتحقيق مآرب سوداء تعشش في رؤوس هؤلاء الزعماء القبليين والايام حبلى وستنجب المفاجآت غير المتوقعة!

* روائي من العراق يقيم في تونس

الخنادق والحواجز والاسلاك الشائكة

صباح علي الشاهر*

■ عندما رسم مخططو سايكس ـ بيكو حدود اقطار الوطن العربي، كانت هذه الخطوط بمعظمها وهمية وواهية. لقد رسموا على الورق خطوطاً، حيثما اتفق، وحسب اهواء ومصالح من رسم وخطط. كانت خطوطاً افتراضيّة، ثم حولوها الى واقع على الارض. ركزوا علامة هنا، وعلامة هناك، ثم لم يفعلوا شيئاً آخر، تُركت الارض كما هي، ما خلا برميل هنا، او وتد هناك، وكومة من الحصى في مكان آخر. لم يشيدوا اسواراً، ولا حفروا خنادق، ولا حواجز، ولا اسلاك شائكة .. كل الذي عملوه بعد ان خططوا على الورق، انهم اقاموا مناطق للعبور الشرعي (المعابر) اسموها مناطق الكمارك، وظلت حيوانات الفلا رغم هذه المعابر تسرح وتمرح غير عابئة بالحدود. تنتقل لوحدها، ام مع حاديها بين هذه الارض وتلك، غير معنيّة بشيء.

لم تسجل مناطق الحدود هذه اي نشاط غير عادي، طيلة عشرات السنين، باستثناء نشاط شرطة الكمارك التي كانت تتعقب المهربين، وتنصب الافخاخ لهم.

كانت الارض العربيّة غير قابلة للقسمة، لكنهم قسموها، واجبروا حكامنا الذين تعاقبوا على التحكم بنا، على تكريس هذه الخطوط الوهمية، واضفاء القداسة عليها.. من هو داخل هذه الحدود منا، ومن هو خارج هذه الحدود ليس منا. لهم شرطتهم وكماركهم وعلمهم وارضهم وناسهم وعملتهم، وحكومتهم وقوانينهم، فان انتقلت اليهم فانت ضيف عليهم، ولنا شرطتنا وكماركنا وعلمنا وارضنا وناسنا وعملتنا، وحكومتنا وقوانيننا، فان انتقلوا الينا فهم ضيوف علينا، شأنهم في ذلك شان غيرهم من عباد الله طرا .. في البدء كنا نستعمل مفردة اشقاء، وسرعان ما تناسيناها، اصبح الجميع اجانب في ديارنا، واصبحنا اجانب في ديار العرب .. فاي فعل عجيب فعلته بنا هذه الخطوط الوهميَّة، التي كانت قبل اقل من قرن من الزمن، مجرد خطوط على ورق.. لقد قيّض لي، ربما بحكم الصدفة، ان امر على اغلبيّة هذه المعابر، الشرعيّة منها وغير الشرعيّة، سائحاً ام هاربا. ورايت كيف تحركت هذه المعابر مع الوقت، وتغيّرت الاحوال. هذه الحدود مُتغيّرة، تنبعج تارة، وتتقعّر تارة اخرى. لاحظت هذا عندما كانت المطلاع هي نقطة العبور والكمارك بين العراق والكويت، ومررت بنقطة العبور والكمارك عندما اصبحت فيما بعد منطقة صفوان لا المطلاع، ومثل هذا يمكن قوله بالنسبة للحدود العراقية الاردنية، والعراقية الايرانيّة، سواء البرية او النهريّة.

لا معلم يؤشر على انك انتقلت من بلد الى بلد سوى البنايات التي تشبه ثكنات الجند التي غرست على الحدود. يمكن القول بكثير من الثقة ان الحدود التي تفصل الاقطار العربيّة لا تحد شيئاً، عبثيّة هيَ، وافتراضيّة، وعبثاً تبحث عن مسوّغاتها.

اول مرّة سمعنا بانشاء خندق بين بلدين، هي عندما قررت حكومة الكويت حفر خندق على طول الحدود الفاصلة بين العراق والكويت، ليكون مانعاً وحاجزاً. بدا الامر سخيفاً على نحو صارخ، فمع تطور تقنيات الهندسة، يبدو من العبث، التفكير بمثل هكذا اجراء، فالخندق، مهما كان لا يمنع الصاروخ ولا الطائرة، ولا المهرب، ولا المقاتل من اجتيازه، وما زلنا حديثي عهد بخط بارليف، المحصن، والمحمي بمانع طبيعي، هو الممر المائي الكبير (قناة السويس)، لكن خط بارليف، وكذلك المانع المائي الطبيعي الكبير، لم يحولا دون اختراق الجندي المصري، لكليهما، والانتقال الى الضفة الاخرى، ثم الى ما بعد خط بارليف ..

ثم اتحفنا الصهاينة بالجدار العازل، الجدار الصهيوني الذي قسّم بالقسر الارض التاريخيّة لشعب فلسطين، حيث قسموا الناس، وفصلوا الجار عن جاره، والمدينة عن ضواحيها، وقسموا حتى الحقل الواحد، والبستان الواحد، والطريق الواحدة. وما زالت ذكرى جدار برلين في الاذهان.

ما الذي جعل الكويت تفكر بالخندق، واسرائيل بخط بارليف، والجدار العازل، والمانيا الشرقية بجدار برلين؟ من الارجح ان ثمة شيئا واحدا مؤكدا، كان هو السبب الاساس لمثل هكذا اجراء، هذا السبب هو الخوف، والشعور المتأصل بعدم الامان ، وضعف الحيلة، وما يستتبع هذا من ركون الى العزلة بوهم حماية الذات.

هل تمنح هذه الخنادق والعوازل والخطوط المحصنة القوّة لمن هو ضعيف اساساً، وهل تمنع هذه الخنادق والعوازل والخطوط المحصنة من صمم على اختراقها؟ الشواهد القديمة والحديثة تثبت ان هذه الوسائل لن تحمي ضعيفاً، ولم تمنع الآخرين من دك تحصيناته على رؤوس المتحصنين بها .. فكم وكم من القلاع تهاوت، وكم من الخطوط اقتحمت ودكت، وكم من الخنادق عُبرت، وكم من الاسوار اخترقت، وبالتالي، فان هذه الوسائل لا تعطي اماناً لخائف، طالما هو خائف، وهي لا تعطي حماية، وانما تمنح المعزول وهماً بالحماية ليس الا.

سايكس ـ بيكو الاولى قسمتنا بخطوط وهمية، وحكامنا كرسوا هذه الخطوط. حولوها الى واقع، غير ان هذه الخطوط، ظلت خطوطاً على الخرائط، ولم تتحول الى موانع طبيعية او انشائية من اي شكل او لون، فلا يوجد بيننا لا جدار ولا خندق، ولا حتى اسلاك شائكة مكهربة.

وسايكس ـ بيكو الثانية، تريد اولا تحويل هذه الخطوط على الخرائط، الى خطوط مُجسمة على الارض، عبر الابتزاز والضغوط، وقد راينا كيف ان سورية اضطرت لانشاء سد ترابي على طول الحدود بينها وبين العراق، وكيف ان العربية السعودية تفكر بوضع اسلاك شائكة مكهربة على طول الحدود بينها وبين العراق، ولربما ستنفذ الكويت فكرة الخندق الذي لا نعرف كيف سيكون، والحبل على الجرار كما يقول المثل.

وسايكس ـ بيكو الثانية اذ تتجلى بنقل الخطوط بين البلدان العربية من البعد الواحد، وهو الخط المستقيم على ورقة، الى المجسم ذي الابعاد الثلاثة على الارض، اي على الواقع، فانها لا تكتفي بهذا فقط، بل انها تسعى لخندقة مدننا العربية، لا اقطارنا العربية فقط. ان ما يجري في العراق الآن هو التجسيد الحقيقي للشرق الاوسط الجديد الذي بشرت به امريكا. فمحافظة كربلاء دعت لحفر خندق يحمي المدينة، والسيد محافظ النجف دعا الى نفس الفكرة، حيث طالب بحفر خندق كبير يحمي النجف، واخيراً طلع علينا السادة حكام بغداد ببدعة الخندق العملاق حول بغداد .. هل فكروا ماذا يعني عمل بائس وغبي كهذا؟ فلنتذكر ان بغداد ذات الملايين الستة والنصف، مدينة تتربع على اكبر مساحة بين مثيلاتها من العواصم العربية، لا بسبب عدد نفوسها، فهناك من المدن من هي اكثر نفوسا منها كالقاهرة، ولكن لان بغداد على عكس بقية المدن، مدينة افقية، يفضل الناس فيها ان يعيشوا في بيوت وليس في شقق في عمارات، لذا فقد امتدت بغداد بشكل قلّ مثيله، وتداخلت مع القرى والنواحي والاقضية المحيطة بها، وارتبط المركز بالاطراف بوحدة منافع متبادلة، ونشاط يومي لا يتوقف، وان توقف او تعثر حل الدمار ببغداد والضواحي، والعراق كله .. هل فكر السادة العباقرة، اصحاب هذا المقترح التدميري بما سيجلبه مشروعهم هذا على الناس، سواء البغداديون او سكنة الضواحي، والمدن والقصبات التي تحيط ببغداد احاطة الاساور بالمعصم؟

الم يكتفوا بانهم سوروا كل المؤسسات والمناطق بجدران الكونكريت المسلح .. عزلوا احياء بغداد بعضها عن بعض، وجعلوا تنقل المواطنين في ارجاء بغداد، ليس صعباً فقط، وانما مستحيلاً احياناً .. لقد عزلوا كل حي عن الحي الآخر، ثم عزلوا الناس في ازقتهم، وصولاً الى سجنهم داخل بيوتهم، وها هم يريدون عزل بغداد عن محيطها ..

بغداد رئة العراق كله، قلب العراق كله، كفاكم تدميراً لها، وتمزيقاً لنسيجها الاجتماعي، وتشويها لوجهها الاعذب والاجمل والاحلى.

* كاتب من العراق يقيم في لندن

مؤتمر ستوكهولم وتوقعات اللبنانيين

د. لويس حبيقة*

■ يدل مؤتمر السويد لدعم لبنان على اهتمام المجتمع الدولي بالوضع الداخلي الدقيق. هنالك شعور دولي بالذنب تجاه لبنان الذي ترك عن قصد أو غير قصد يواجه منفردا الجيش الاسرائيلي المجهز بأحدث التقنيات والأسلحة. هنالك شعور دولي بضرورة مساعدة اقتصاد الـ 20 مليار دولار الذي يواجه اقتصادا اسرائيليا أحدث و6 مرات ونصف أكبر منه (130 مليار دولار). أما الناتج الفردي الاسرائيلي فيبلغ أكثر من 4 مرات مثيله اللبناني. كيف يترك اقتصاد ضعيف يواجه اقتصادا قويا مدعوما من الغرب وخاصة أمريكا؟ هنالك شعور دولي بالتقصير تجاه عملية السلام في المنطقة والذي يدفع ثمنه لبنان. ان استمرار الحصار الاسرائيلي مضر جدا وسيترك آثارا سلبية كبرى على مستقبل العلاقات الاسرائيلية ـ العربية. كيف يمكن للبنان أن ينفذ ما هو مطلوب منه في القرار 1701 وهو محاصر وفي وضع اقتصادي ضيق ومعرض للانفجار؟ هل تريد اسرائيل فعلا العيش بهدوء وسلام مع دول المنطقة؟ أم تريد العيش في حروب دائمة ومستمرة؟ هل ترغب اسرائيل فعلا في التسوية أو السلم وهي تستفيد ماليا وسياسيا جدا من الحرب؟

رقم الـ 500 مليون دولار الذي حصل عليه لبنان في مؤتمر السويد هو أقل من عشر الخسائر المباشرة وغير المباشرة التي أصابت لبنان واللبنانيين. المهم أن تحسن الحكومة انفاق هذه المبالغ على من يحتاج اليها حتى يستطيع لبنان الحصول على هبات أكبر في المستقبل القريب. الكرة هي اذا في ملعب الحكومة، ولنا مصلحة جميعا في أن تنجح في تسجيل أهداف خير لمصلحة كل اللبنانيين. المهم أن تقود الحكومة عملية الاعمار بشجاعة وشفافية، وأن تدعمها كل الأحزاب والجمعيات والتيارات لأن ما يجري اليوم هو فوق السياسة وأهم منها بكثير.

بالرغم من دعم المجتمع الدولي لموقف لبنان في مؤتمري روما وستوكهولم وغيرهما، لا يزال الحل المناسب بعيدا. فالقوات الدولية متأخرة بعض الوقت والحصار مستمر بالرغم من تدخل الأمم المتحدة بحدة لرفعه. لذا تبدو توقعات المواطن العادي سلبية بشأن الحل المرتقب. بالنظر الى تحركات المواطنين العادية في الأعمال، يظهر القلق والشك واضحين على الوجوه والتصرفات والتوقعات. لقلب هذه التوقعات، لا بد وأن تظهر بسرعة خطوات عملية دولية ومحلية تطمئن المواطن الى المستقبل. عندها تعود الحركة الاقتصادية تدريجيا الى سابق عهدها وتعود الاستثمارات الداخلية والخارجية. أما اذا صدقت توقعات المواطنين، فسيسوء الوضع بجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وستنتج عنه هجرة أدمغة وعمال.

اقتصاد لبنان هو دون شك اقتصاد الفرص الضائعة. بينما كان لبنان غارقا في حروبه، كانت دول أمريكا اللاتينية وشرق آسيا وغيرها تدخل أفضل التكنولوجيا اليها وتستقطب السواح والاستثمارات وتنمو بنسب عالية. لا يكفي أن نحتسب الخسائر البشرية والمادية المباشرة عندما نقيم الضرر الذي لحق بنا، انما يجب اضافة مجموع الفرص الضائعة التي تذهب الى دول أخرى. «مصائب قوم عند قوم فوائد» وهذا يكون عموما في كل الاتجاهات. بعض أسباب ضياع الفرص تقع خارج ارادتنا ومرتبطة بالمصالح الاقليمية والدولية.

يحتاج لبنان الى ضخ مالي جديد عبر مساعدات وهبات واستثمارات في كل القطاعات. من غير المسموح أن يدخل الفساد ويتدخل الفاسدون في عمليات انسانية ومالية بهذا الحجم. نعرف جميعا تأثير الفساد سلبا على حرية الأسواق واحترام القوانين وسلطة الدولة ومستوى التنمية. ليس هنالك أي قلق بشأن مصادر أموال الاعمار اذ ستكون بأكثريتها عربية. نذكر هنا أيضا أن المنطقة العربية تحتوي على غنى خاص كبير جدا، وبالتالي هنالك امكانية لجمع التبرعات كما فعلت السعودية والامارات وغيرها خلال الحرب العسكرية.

تعاني مؤسساتنا اللبنانية الرسمية من الاهمال والهدر والفساد. ما يؤلم اليوم هو وجود العديد من المحتكرين الذين يسعون الى استغلال المواطن في وقوده وسلعه الغذائية ودوائه وخدماته العادية. كيف تغيب الأخلاق في مجتمعات مؤمنة تفاخر بمذاهبها وتعاليمها؟ في هذه الأزمة الكبيرة وكما في كل الأزمات، يحتاج المجتمع الى أفكار جديدة، اذ أن القديمة جربت وفشلت أو كانت خاطئة ومضرة. فالأفكار الخيرة تخفف التقلبات وتزيد الفرص وتقوي الأمل في المستقبل. تساهم الأفكار الجديدة في جمع المجتمع حولها فتقوى المصالح المشتركة العامة. في وضعنا المؤسساتي المقلق، تشكل الأفكار الصائبة نوعا من السلاح الذي يدفع باتجاه الحلول والنتائج الفضلى. تؤسس الأفكار الجديدة لاقتصاد حديث يرتكز على مؤسسات عامة متجددة خالية من الفساد وتعتمد على مبادئ المحاسبة والشفافية. تشير التجارب الدولية الى أن الأفكار المدروسة المطبقة تساهم في تثبيت الاستقرار ورفع مستوى الرفاهية في المجتمع. يحتاج الاقتصاد اللبناني اليوم أكثر من أي وقت مضى الى قبول وتنفيذ أفكار ومشاريع جديدة منتجة تساهم في اعادة الحيوية اليه وتعزيزها.

عندما تنتهي هذه الحرب بكل أشكالها ونتائجها، لا بد من معالجة العديد من المشاكل الخفية التي ستظهر علنا بقوة. مشاكل المجتمع اللبناني ليست فقط سياسية وانما أيضا ثقافية واجتماعية يجب معالجتها كلها بهدوء عبر الحوار والتنافس الديموقراطي. يجب أن نبرهن للعالم أننا نتفاعل في ظروف تعايش حضارات وليس صراع حضارات. طبعا ستكون هنالك وجهات نظر مختلفة بشأن الح